

جواھر لال نہرو  
1964 - 1889

يعتبر جواهر لال نهرو أبرز شخصية في تاريخ الهند الحديث بعد المهاتما غاندي. تدل على ذلك سيرته ومواقفه قبل أن يصبح رئيساً لأول حكومة هندية بعد الاستقلال وتشير إلى فكره النير رسائله التي أرسلها لابنته أنديرا وهي في الثالثة عشر من عمرها عندما كان في السجن. وهي رسائل من أروع ما كُتب عن تاريخ العالم قديمه وحديثه مقترناً بالأفكار النيرة التي قدم فيها رؤيته للعالم الحديث بعد أن قدم صورة مكتملة المعالم عن الثورات التي شهدتها العالم في الظروف السابقة. إلى أن ما يضاف إلى تلك السيرة المشار إليها الموقع الذي احتله على الصعيد العالمي عندما كان رئيساً للحكومة لا سيما في تأسيس حركة عدم الانحياز ودوره المميز فيها. إلى جانب جوزف تيتو وجمال عبد الناصر وسوكرانو وآخرين في أواسط خمسينات القرن الماضي. وقد لعبت الحركة في ذلك التاريخ دوراً مهماً ثم تلاشى دورها مع رحيل المؤسسين المشار إليهم. وإذ نتذكر اليوم هذه الشخصية العالمية الفذة فإننا لا نستطيع إلا أن نشير إلى العلاقة التاريخية التي نشأت بينه وبين غاندي الذي يعتبر نهرو معلمه الأول. فقد اختار بوعي وبعقلانية الطريق ذاته، طريق اللاعنف في العمل السياسي. لكن نهرو كما تشير إلى ذلك سيرته ورسائله إلى ابنته انديرا كان أكثر وضوحاً من غاندي في تحديد مفهوم للدولة. إذ كان أكثر ميلاً للفكر الاشتراكي على طريقته وفي فهمه لها. وعندما زرت الهند أكثر من مرة وخلال لقائي مع قادة الحزب الشيوعي الهندي ومع شقيقته تأكد لي ما أشرت إليه. لذلك فاتنا عندما نتذكر هذا الإنسان الكبير فإن علينا أن نقرأه من جميع جوانب سيرته هنديةً وعالمياً في الآن ذاته وعلينا ألا ننسى ما أصاب الهند في زمن غاندي وفي زمن نهرو من انقسام فرض عليها من قبل الإنكليز. إذ تحولت الهند إلى دولتي الهند وباكستان والصراع الذي رافق ولادتها على امتداد عقود من الزمن. وخلال قراءتي لسيرة نهرو عرفت الشاعر والفيلسوف طاغور الذي كان له تأثير على نهجه. وهو من أهم رموز الشعر والفلسفة في تاريخ الهند الحديث. إلا أن ما اقترن في الهند من تعددية دينية وإثنية قد ترافق مع نوع راق من الديمقراطية التي عرفها العام في زمن نهرو وفي العهود التي تلتها وهو ما تمثل في الدور الذي اقترن باسم حزب المؤتمر الذي أسسه غاندي بين عامي 1922 وبداية الأربعينات.

ومن دون الدخول في التفاصيل المتصلة بسيرة نهرو رئيساً لحكومة الاستقلال وهي غنية

بالأحداث فإنني أتوقف عند الكتاب الذي يتضمن رسائله إلى ابنته أنديرا عندما كان في السجن على امتداد عامين، فهو كتاب أعتبره من أرقى ما يمكن أن يعبر عن شخصية نهرو وأفكاره النيرة.

وأود هنا أن أتوقف عند رسائل نهرو إلى ابنته أنديرا وأقتطف بعض الفقرات من مقدمة المفكر المصري أحمد بهاء الدين الذي وضعها للكتاب الذي اختار منه بعض الأجزاء وترجمها إلى اللغة العربية داعياً المثقفين العرب إلى ترجمة النص الكامل للكتاب، والذي يتجاوز الألف صفحة. يقول بهاء الدين بعد أن يقدم عرضاً لسيرة نهرو في كتابه الشهير حياتي: " نريد أن نعرف أي نوع من الثقافة والتفكير يكمن وراء تاريخ هذا الرجل، وأي لون من المنطق يوجه مواقفه السياسية. فالسياسة التي ينتهجها نهرو لا شك أنها نتيجة تفكير معين أو منطق معين تبلور في نفسه خلال مئات من التجارب والأحداث والقراءات، فما هو تفكيره ومنطقه؟ ما هي حقيقة نظرته إلى الحوادث والأشياء؟..."

إن معرفة منطق نهرو وتفكيره ليست بالمسألة الصعبة... فأراه كلها مبسطة مسجلة في الكتب الكثيرة الضخمة التي ألفها...

ذلك أن نهرو طراز آخر من الزعماء يختلف عن الطراز الذي عرفناه - من جيل نهرو - في بلاد الشرق العربي خلال الثلاثين عامًا الماضية...

لقد عرفنا - من جيل نهرو - نوعاً واحداً متكرراً من الزعماء الذين قد يتميزون بالوطنية والشجاعة والإقبال على التضحية، ولكنهم لا يتميزون بشيء آخر خطير وهو: الثقافة الواسعة، والنظرة العميقة إلى الأمور!

عرفنا نوعاً من الزعماء الذين لا يعرفون إلا شيئاً واحداً: هو أن في البلد غاصباً مستعمرًا يجب طرده، وكفى! ولكنهم لا يعرفون - معرفة محددة - ما يكتنف ذلك من عشرات المشاكل، وآلاف التيارات، والدراسات في الداخل والخارج على السواء.

كان هؤلاء الزعماء يعرفون أن الجهاد عملية إثارة وتضحية لنزع الراية الأجنبية المرفرفة على أرض البلاد فحسب. ولكنهم لم يعرفوا قط أن الجهاد - بما فيه من إثارة وتضحية - ينطوي أيضاً على عملية بناء متصلة باهرة لا يد لها من الدراية الشاملة بتكوين البلد الاجتماعي، والعناصر

الفعالة وغير الفعالة في مقاومة الاستعمار، والقوى التي يمكن مخالفتها والتي لا مفر من معاداتها والصورة الواضحة لنوع المجتمع الحر الذي يجب الوصول إليه خلال هذا الجهاد..

ويتابع بهاء الدين: " والقارئ لكتب نهرو يلاحظ أن نهرو لم يحبس نفسه في ثقافة الهند وحضارتها، وفي دراسة تكوينها الاجتماعي وتطورها الوطني فحسب، بل أنه قد درس العالم كله، وتاريخه كله. فعرف العوامل التي توجه السياسة العالمية، وأحاط بأدق مشاكل المجتمعات الحديثة الأكثر تقدماً من مجتمع الهند، فاستطاع أن يعرف ماذا تحتاجه الهند بالضبط. ولما استقلت الهند، وأصبح هو رئيس أول وزارة فيها، لم يكن جاهلاً ولا ساذجاً، بل كان يعرف مقدماً كيف يحتفظ في هذا العالم برأسه، وأين يضع قدميه.

وقد وصفه الذين رأوه بأنه هادئ جداً، وديع جداً، يتكلم بصوت خافت، ويمشي وكأنه يسير على أطراف قدميه... فلا يصدق من يراه أنه أشعل الثورات، وقاد الملايين.

وأسلوب نهرو في الكتابة يتفق مع مظهره الهادئ الوداع، فكتابته خالية تماماً من الانفعالات والكلمات الرنانة ذات الواقع المثير. وهي لا تشبه في شيء البحر الصاخب العالي الموج، ولكنها كالماء الهادئ الرقيق، تستطيع أن تسبح مع أفكاره، وأنت محتفظ بهدوء أعصابك وصفاء ذهنك بحيث تستطيع أن تستوعب الحقائق الموضوعية التي يعرض لها... كاملة! حتى الصفحات التي كتبها في أعنف ساعات الصراع، وعندما كانت في إنجلترا تصب عليه وعلى مواطنيه الثائرين أشد أنواع الإرهاب، نجد أسلوبه على نفس الهدوء الوداع والصفاء، فلا يوجه إلى الدولة التي ترتكب أبشع الجرائم كلمة عنيفة واحدة. ولا يصفها بالإجرام أو الكذب أو التزوير، بل يستعمل عبارات أدبية عالية في وصف هذه المعاني...

في كتابه عن تاريخ حياته، الذي أخرجه سنة 1936، يراه يتحدث عن إيمان إنجلترا بالديمقراطية في بلادها دون بلاد المستعمرات فيقول ساخراً: «إنها ترى أن الديمقراطية نوع من الفراء الفاخر لا يلبسه سكان المناطق الحارة!».

ويتابع بهاء الدين: " إذ هذا الكتاب الذي أترجمه عن نهرو وعنوانه الأصلي "لمحات ممن تاريخ العالم" وهو يصل في حجمه الأصلي أيضاً إلى ما يقرب من الألف صفحة من القطع الكبير، كتبه نهرو وهو في السجن في صورة رسائل كان يبعث بها إلى ابنته الصغيرة أنديرا...

ويتابع بهاء الدين: "وقد تحدث نهرو في الكتاب عن تاريخ العالم كله، منذ فجر المجتمع الانساني. ولم يتحدث عن تاريخ حضارة معينة أو بلد معين، بل تراه يتحدث في دقة ودراية عن تاريخ كل الحركات الهامة التي وقعت فوق هذه الكرة، فهو في الواقع تاريخ للعالم كله، وليس مجرد لمحات".

ما تقدم من معطيات بعض منها ذكرته في هذه العجالة وبعض آخر جاء في مقدمة أحمد بهاء الدين.

ومعروف أن نهرو قبل أن يصبح زعيماً كان قد ألف كتاباً تحت عنوان «حياتي وسجوني» وأهمية هذا الكتاب أن نهرو عندما كتبه كان في مرحلة تحوله التدريجي إلى زعيم كان يقرأ الأحداث بعقلانية ويسمي الأشياء بأسمائها ويضع في طريقه للسياسة معايير وضوابط. والكتاب هو في الحقيقة سرد لحياته خلال العقود الخمسة الأولى من حياته وكان همه في الكتاب وفي قراءته للأحداث أن يقترب منها من دون أن يعطي لنفسه الحق للتدخل فيها. وكان نهرو كما يشير في الكتاب أن يعطي صورة لتطوره الفكري والأخلاقي. وكان يستخدم عقله في قراءة الأحداث، وذلك بهدوء أية كانت تلك الأحداث، الأمر الذي جعله صافي الذهن. ويؤكد نهرو في الكتاب أن السعي إلى الكمال، والاقتراب من العلى قدر الإمكان، هو ما ينبغي أن تكون عليه مواقف كل إنسان سياسي كما يؤكد.

والجدير بالذكر أن نهرو في كتابه هذا كان يمر في حقبة صعبة من حياته تخلتها أحداث

أليمة ألمت به كان من ضمنها دخوله إلى السجن 9 مرات يز

ما تقدم عطي فكرة مكثفة عن سيرة لشخصية تاريخية واستثنائية هو نهرو وصورة عن أفكاره وعن قراءته لتاريخ العالم لاسيما الثورات الكبرى التي توقف عندها في كثير من الاهتمام بما في ذلك الثورة الفرنسية والثورة الاشتراكية وفكر ماركس التي أسس لها. وإني لأدعو القارئ أن يعود إلى كتاب رسائل نهرو إلى ابنته أنديرا لأنني أعتبره مدرسة حقيقية في قراءة تاريخ العالم.